صورة الجزائريين بين السّخرية والتلفيق من خلال رحلة بول أودال من الجزائر إلى بوسعادة

the Image of Algerians between mockery and fabrication through Paul Odall's journey from Algiers to Boussaâda



بلعربي مجاهد [1] *

[1] جامعة العفرون علي لونيسي مخبر الدراسات الادبية والنقدية، الجزائر.

m.belaribi@univ-blida2.dz

تاريخ الإرسال: 2026/03/06 تاريخ القبول: 2026/04/17

****

ملخص:

من أهداف أدب الرحلة نقل انطباعات ومشاهدات الرّحال والصّور التي علقت بذاكرته عن الآخر وعاداته وتقاليده وطريقة عيشه...بأسلوب يمزج بين العلم والأدب فجاءت انطباعاتهم ومشاهداتهم وأخبارهم خليط بين الحقيقة والخيال والتلفيق...رغم ذلك فهي مرجع لا يستغنى عنه في جميع الميادين العلمية والأدبية والمعرفية، فيحتاجه الأديب كما يحتاجه المؤرخ وعالم الاجتماع وغيرهم ورحلة بول أودال من (الجزائر إلى بوسعادة) كغيرها من الرحلات نقلت صورا عن الشّعب الجزائري يمكن وصفها بالتلفيق والمفتريات في جلها، وإن جاءت تصويراته في حقيقتها تصور الحالة البائسة لشعب سلبت أرضه، بأسلوب مزج فيها بين السّخرية والافتراء.

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلة؛ أهمية الرحلة؛ بول أودال؛ مسار الرحلة؛ صور الجزائريين.

Abstract:

One of the goals of travel literature is to convey the impressions and observations of the traveler and the images that stuck in his memory about the other, his customs, traditions and way of life...in a style that blends science and literature. Thus, their impressions, observations and news came as a mixture of truth, imagination and fabrication...despite that, it is an indispensable reference in all scientific, literary and cognitive fields. The writer needs it as much as the historian, sociologist and others. Paul Audal's journey from (Algiers to Boussaada), like other journeys, conveyed images of the Algerian people that can be described as mostly fabrications and slander, even though his depictions in reality portray the miserable state of a people whose land was stolen, in a style that blended mockery and slander.

Key words: Travel literature; the importance of travel; Paul Odall; the route of travel; images of Algerians.

* بلعربي مجاهد

مقدمة:

الرحلة حركة وانتقال في المكان والزمان، وأدب الرحلة –نصوص الرحلة- هي ما أسفرت عنه رحلات هؤلاء الذين جابوا الفيافي والبحار، وقطعوا المسافات على اختلاف دوافعها(تجارة، علاج، حرب، سياحة، حب السفر...)، فدونوا ما عاشوه وشاهدوه وانطبع في عقولهم وخيالهم و ذاكرتهم، عن الطرق والشعاب، والجبال...، وعن الآخر وعاداته وتقاليده وطريقة عيشه ومعاملاته وتفكيره ...منبهرين تارة، و متعجبين تارة أخرى...وهكذا، ولما كانت الرحلة من الأجناس المختلطة، لاحتوائها على العديد من الميادين منها: سياسية، واجتماعية، وتاريخية، واقتصادية...ولأن الرحلة مزيج من الثقافات، يحتاجها عالم الاجتماع، ويحتاجها المؤرخ، كما يحتاجها الجغرافي والفقيه، والأديب...فلا مناص من الرجوع إليها للتزود من معارفها، وأخبارها، ومن هذه الرحلات الّتي بلغ صيتها الأفاق رحلات ابن بطوطة، وابن جبير، والمقدسي والورثيلاني ...وغيرها.

أما عن هذه الورقة البحثية فقد سلّطت الضّوء على خطاب رحلة قام بها أحد المستشرقين الفرنسيين داخل التّراب الجزائري، مسارها من الجزائر العاصمة إلى بوسعادة، و سبب الرحلة ودافعها هو الطّمع والبحث عن الثروة – جمع حلي و مجوهرات الأهالي- كما هو مصرح به في نص الرحلة، والجانب الّذي ركزنا عليه هو نظرة هذا المستشرق (بول أودال) من خلال استنباط بعض الصّور التي رسمها **للشّعب الجزائري**، والأسلوب السّاخر الّذي وصف به هذا الشعب المغلوب على أمره، فكان عنوان هذا البحث " صورة الجزائريين من خلال رحلة بول أودال أنموذجا " أما عن إشكالية البحث فكانت كالتالي: ما هي الصّور الّتي رسمها هذا الرحال الفرنسي للجزائر شعبا وأرضا، وحتى حيوانا؟ وما مدى صحتها؟ أم هي تلفيق وتزوير لتشويه صورة هذا الشعب نساء ورجالا وأطفالا... والإجابة عنها تعني إظهار النوايا السّيئة والخبيثة للفرنسيين، وما يكنوه في صدورهم للجزائريين، كما أبانت جشع وافتراء وتلفيقا من هذا العدو الذي نهب خيرات هذه البلاد ولم يقر بذلك، أو يذكره على سبيل الاعتراف بالجميل فحسب. فماذا ننتظر من هذا الشعب المحتل الذي همه الإبادة والقتل والهيمنة على الشعوب الضعيفة. أيضا قدمت لنا الرحلة فائدة تمثلت في معرفة حالة الشّعب الجزائري في تلك الحقبة الزمنية المريرة من الاحتلال الفرنسي، حيث كان يتخبط في الجوع والعري والفقر والجهل، وجميع أنواع الظلم والقهر المسلط عليه من قبل المستدمر ...

أما عن منهجية هذا البحث، فهي لا تخرج عن الطريقة المعمول بها في كتابة المقالات، حيث يفتتح المقال بمقدمة مناسبة ممهدة للموضوع متضمنة، ذكر عنوان المقال وطرح الإشكالية، وذكر بعض فرضياته وعناصره، ثم يأتي العرض مشتملا على: التعريف بأدب الرحلة، وكاتب الرحلة ورحلته، ثم استنباط ما أمكن من تلك الصّور الملفقة والمفتريات الواردة في هذه الرحلة والتعليق عليها بالوصف، وفي الأخير خاتمة أو خلاصة لهذا البحث، الّتي هي عبارة عن أهم ما أثمر عنه البحث من مفاهيم وأفكار، أو تقديم نصائح وما شابه ذلك..

المبحث الأول

مفاهيم حول أدب الرحلة

المطلب الأول: مفهوم أدب الرحلة:

إذا تأملنا المصطلح جيدا وجدناه يسفر عن أدب يمكن وصفه بالجدّة، لأنّ معالمه لم تبلغ درجة النضج حتى الآن، وبالقدم، لأن البحث عن أقدم النصوص الّتي تحكي عن الأسفار أو الرحلات، تعود إلى زمن بعيد، ربما من عهد الرومانيين والفينيقيين ...أو أبعد منه. وعبارة "أدب الرحلة" كما هو مبين تركيب دلّ أوله على العموم –كل ما كتب أو لم يكتب من نصوص أدبية شعرية كانت أو نثرية- أما آخره فهو تقليص من عمومية هذا الأدب وحصره في مجال ما كتب في الأسّفار، أي كل نص كتبه صاحبه وهو يحكي قصة سفره. إذا يمكن أن نقول : أن الأب الشرعي لهذا الأدب هو الرحلة أو السّفر. وكما هو معلوم أن للرحلة مشتقات كثيرة لا تخرج عن دائرة "حركة وانتقال" (الموافي، 1995م، صفحة 23) منها السّفر، السير، الظعن ...وهكذا لمن أراد المزيد عليه العودة لمعاجم اللغة العربية. لكن ما يهمنا هنا ما معنى أدب الرحلة؟ والأهمية أو الخدمة الّتي يقدمها هذا الأدب للإنسانية؟ ويمكن لنا أن نستأنس بأقوال بعض نّقاد هذا الأدب في بيان مفهوم هذا الأدب منهم:

- عبد الرزاق الموافي : فمنطلقه في تعريف الرحلة –أدب الرحلة- من البنية الّتي أطرت مضمونه يقول: هو" ذلك النثر الّذي يصف رحلة –أو رحلات –واقعية قام بها رحال متميز موازنا بين الّذات والموضوع من خلال مضمون وشكل مرنين ؛ بهدف التّواصل مع القارئ والتأثير فيه" (الموافي، 1995م، صفحة 41) يرى الموافي أنّ الرحلة فن نثري وهذا في الغالب والمشهور هدفها التأثير في القارئ، لكن هذا لا ينفي بوجود رحلات كتبت شعرا، أو استعان صاحبها بالشعر لنقل انطباعاته.

- مجدي وهبة: ترى أنه: "مجموع الآثار الأدبية الّتي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة أو يجمع بين كل هذا في آن واحد. (المهندس ومجدي، 1984م، صفحة 17) الكاتب مجدي وهبة يصفه بالآثار الأدبية مما يعزز انتماءه إلى الأدب، كم يعزز فكرة تنوع الأجناس التي كتبت بها الرحلة.

- إميل بديع يعقوب : هو ذلك " الأدب الذي يضمنه الكاتب الرحّالة انطباعاته، ومشاهداته في الأقطار المختلفة الّتي يزورها، ويشمل على وصف الطبيعة الجغرافية كما يشمل على وصف النّاس وتقاليدهم وأنماط حياتهم وتفكيرهم ونبذا عن تاريخهم البعيد والقريب ؛ مما يجعلها في بعض الأحيان مرجعا وثائقيا تاريخيا هاما، وموضوعا للدّراسة المقارنة في مختلف مجالات الأدب والفكر والحياة. (يعقوب و ميشال عاصي، 1987م)إذا نصوص الرحلة من الفنون الأدبية، وهي مصدر مهم للباحثين والمؤرخين، لايستغني عنه النّقاد في دراساتهم خاصة عن تاريخ الشعوب والحضارات.

كما يمكن اعتبار رحلة الآخر نوعا من الدراسات لفهم الشعوب والحضارات، خاصة ونحن بصدد دراست رحلة (أحد المستشرقين) إلى الجزائر ومنه إذا الاستشراق ظاهرة ثقافية ومعرفية تغذيها عواطف

اكتشاف ذلك المجهول الغامض المحاط بالرموز التي لا تقرأ أحرفها بسهولة، والشرق هو ذلك المجهول في أعماق النفس الأوروبية، ليس مجرد كيان جغرافي بعيد... فالشرق في نظر الثقافة الغربية كون جديد وقارة غاضبة متحدية وضفة شرقية منتصبة بكبرياء التاريخ كله، تقاوم بكل تحد، ولا تستسلم، (النهان، 2012، صفحة 8) لا بد من اكتشافها

يبدو أن الفكرة قد اتضحت بقدر كاف من خلال ما مر معنا من تعريفات ثم التعليق عليهم. يبقى السؤال عن الخدمة أو الفائدة من هذا الفن، أم هو مجرد كتابات كتبت لأجل المتعة والتسلية فحسب.

الفرع الأول: أهمية أدب الرحلة:

ممن تحدثوا عن الخدمات الكبيرة الّتي تقدمها الرحلة أو أدب الرحلة للإنسانية جمعاء الكاتب والناقد (فؤاد قنديل) في كتابه (أدب الرحلة في التراث العربي)، فقد حرص على تقديم أهم الخدمات الّتي تقدمها الرحلة لصاحبها إذ لم يدونها صاحبها، وللإنسانية جمعاء إذا دونت وصارت نصا. ولعل من هذه الثمار وصفه للسّفر بـ:" جامعة تحفل بالدروس والعبر، وتحشد بالعلم والمعرفة، وتشحذ العقل والوجدان، وتزيد في الفهم والإدراك، وتصقل الشخصية بفضل قساوة التجربة، وحرارة المواقف، ورهبة المغامرة، وطلعة جديدة في كل شأن، ومواجهة المفاجآت، وتحمل مشاق الغربة والسفر، والاطلاع على الطبائع المختلفة، والاعتياد على الغريب، والتمرس بمعاملته، (فؤاد، 2002م، صفحة 21) إذا يمكن عدّ الرحلة رياضة بدنية نفسية شعورية للرحال، تمكن له كسب قوة التحمل على جميع الأصعدة بدنية نفسية شعورية، كما تمكنه من تثقيف نفسه لما ينجر من وراء السّفر من معرفة لبعض عادات وتقاليد الآخر، وكذا تعلم لغته وغيرها . ومن الفوائد أيضا بقلم هذا الناقد أنها تعمل على تقريب :" شعوبا تناءت عن شعوب، وأقواما إلى أقوام تفصل بينها البحار والقفار. (فؤاد، 2002م، صفحة 22):" كما قدمت خدمات مهمة لعلم الجغرافيا وللمؤرخ، ولعالم الاجتماع، وللأديب، والفلكي، والسّياسي،...وغيرهم كونها نص يمتاز بالشمول والتنوع.

الفرع الثاني:

التعريف بصاحب الرحلة: ولد الرحّالة (بول أودال) بتاريخ 23أكتوبر 1837م بمنطقة (كوتوي) **(crotoy)** شمال فرنسا، توقف عن الدراسة في مرحلة التعليم الثانوي بسبب قلة الموارد المالية التي تسمح بمواصلة التعليم، بدأ حياته مبكرا في السّفن البحرية، ثم سافر إلى جزيرة (رينيون) (**Reunion**) حيث يقيم عمه غذ بقي إلى جانبه سنتين ثم عاد للعمل في البحرية إلى أن تمكن من الحصول على وظيفة لمدير معمل تكرير السّكر بمنطقة (نانت) .**(quotidient, 27.10. 1937)** . ووصفه مترجم الرحلة بأنّه" رجل ذو موهبة أدبية واضحة وثقافة أدبية، وهواية في الرسم واهتمام بالحياة الاجتماعية، وتاريخ الحلي العربية في الجزائر، وهو الهدف الأساسي في الرحلة الّتي اتخذت شكلا سياحيا بخلفية سياحية ما. (قينة، صورة الجزائر، أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي 1899م من الجزائر إلى بوسعادة عبر برج بوعريريج، 2010، صفحة 93)

عرف من صغره بشغفه وحبه للاطلاع، وكما عرف بفضوله لمعرفة الأشياء، وجمع التحف والأشياء النّادرة فكان همه السّفر والترحال في أوربا هذا الفضول دفعه إلى الاهتمام بالأدب. والمشاركة بعدة مواضيع، وأصبح أكبر الأخبار في جرائد عالمية مثل **Le temps** وعضوا بعدة جمعيات ثقافية وعلمية . انتقل للعيش في (باريش) حيث كرس حياته للأدب توفي سنة 1911م بمدينة بلواز **blois** بمقاطعة (لواز) بوسط فرنسا. **(السعدي، 5, 7, 12, 2016م، صفحة 4)**

3. 2- من مؤلفاته:

له العديد من المؤلفات ما يهمنا هنا أربعة منها تناولت الحديث عن الجزائر وهي على التوالي:

Dictionnaire des bijoux de l'Afrique de nord.
L'orfèvrerie Algérienne et Tunisienne.
Hivernage en Algérie.
D'Alger a Boussaada. **(السعدي، 5, 7, 12, 2016م، صفحة 5).**

الفرع الثالث: مسار الرحلة

يبدو أن دافع رحلته هو البحث عن الحلي والجواهر الّتي خلّفها الأهالي، وقد ذكر هذا في رحلته، وعادة ما يجد نفسه واقفا أمام محلات ودكاكين الصّياغة للتمعن في النّماذج المعروضة، ورحلته الّتي كان عنوانها "من الجزائر إلى بوسعادة" في ربيع (1899م)، **(السعدي، 5, 7, 12, 2016م، صفحة 5)**، كان الغرض منها البحث عن مجوهرات وحلي الأهالي كما قد أسلفنا الذكر، كما كان لهذه الرحلة الكثير من الفوائد على الصعيد الأدبي والفني نظرا للدراسات المسلطة عليها. كما وصفها (عمر بن قينة): أنها ضرب من السيرة ذات طابع أدبي، يميل إلى الوصف والتقرير اعتمادا على المشاهدة، وقد كانت الحلي العربية هي الهدف الأساسي لرحلته الّتي اتخذت شكلا سياحيا . **(قينة، صورة الجزائر، أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي 1899م من الجزائر إلى بوسعادة عبر برج بوعريريج، 2010، صفحة 93)** بث من خلالها هذا الرّحال سمومه فيها حيث قدم وصفا ساخرا لا يقبله عاقل، لكن من الشّر أحيانا يأتي الخير، فقد كشفت لنا هذه الرحلة نوايا هذا المحتل اللئيم.

المطلب الثاني: عرض بعض الصّورللجزائريين من خلال رحلة بول أودال:

هذه الرحلة تضمنت العديد من الصّور رسمها أحد الرّحال المستشرقين للشعب الجزائري تتراوح بين السّخرية والتلفيق، وإن كانت تسفر عن حقيقة واضحة، هي الفقر والجهل، الذي عاشه الشّعب الجزائري في ظل هذا المستدمر، وفي هذا المطلب تطرقت لمجموعة من الصّور التي تضمنها خطاب الرحلة، التي قام بها هذا الرحال داخل التراب الجزائري، إبان الاحتلال لكن قبل عرض بعض هذه الصور ننوه في عجالة عن معنى علم الصورة أو الصورائية والفائدة منه، فالصورائية هو" ذلك العلم الّذي يعنى بدراسة الصّور الثقافية التي رسمتها الشعوب عن بعضها...وتهتم برصد انطباعات المجتمعات الرابضة في مخيال الوعي الجمعي" **(نوفل ، 2012، صفحة 2)**: إذا الصورائية علم يهتم بالصور التي ترسمها الشعوب أو الإفراد عن بعضها،

أو هي" مجموع الأفكار والمشاعر حيال الأجنبي، التي تتخذ في خضم التكوينين الأدبي والاجتماعي." (دانييل، 1997، صفحة 12)، و قد عرفها عبد المجيد حنون تعريفا يوضح من خلاله الهدف من تلك الصور، والمنابع الناتجة عنها يقول بأنّها" رؤية فردية أوجماعية تمتزج فيها عناصر فردية وعاطفية في الوقت نفسه موضوعية وذاتية، فلا يمكن لأي أجنبي أن يرى بلدا كما يحلو لسكانها الأصليين أن يرى، ومرد ذلك أنّ العناصر العاطفية تطغى على العناصر الموضوعية." (بروتيل،، 2005، صفحة 109) وهذا ما أشرت إليه في أعلى البحث، عندم بينت بأنّ هذه الصور رغم صدورها من شخص يمثل نفوس شعب هدفه السّيطرة ونهب ثروات البلدان المسيطر عليها، وفرض الهيمنة عليها...كما أنه لا يحمل أي جانب انساني كم يزعم، وذلك واضح وجلي بينته تلك الصّور التي رسمها بول أودال للجزائريين، إلا أنّ في طياتها جانبا موضوعيا لا ينكره عاقل هو تلك الحقيقة المتمثلة في صور الفقر والحرمان، والعادات السيئة كتعاطي المسكرات...التي انتشرت بين أبناء هذا البلد المحافظ، لكن أبدا لن تعكس صورة هذا الشعب خاصة الخلقية، فهي حالات قليلة لضعاف النفوس الذين استهوتهم الحضارة المزعومة لهذا المحتل، وهذه الصورة النمطية التي يريدون ترسيخها عن الجزائريين كما يقول (نور الدين أفاية) لا تستمد جذورها من الواقع؛ الذي من الجائز قد تعرض لتشويه من الطرف الآخر، إنه ينبعث من فكر الآخر في سياق نية الإساءة والدفع بالعمل الحربي إلى الغزو. (أفاية، 2009، صفحة 117) إذا باختصار مفيد هذا توضيح لما سنعرضه من صور: منها:

1 صورة للعرب عامة والجزائريين خاصة: نبدأ بعرض بعض هذه الصّور الّتي تظهر السّخرية عن العرب قاطبة، حتى لا يقول أحدهم أنّ فرنسا عدوة الجزائر أو البلدان الّتي احتلتها فقط، بل هي عدوة كل ناطق بلسان عربي يدين بدين الاسلام. فقد تجرأ هذا الرحّال أن يرسم صورة ملفقة من خلال تصوره لأسد أنهكته السنين " هرما منهكا كسيحا يتبع –ككلب مجعد في رسن- عربيا راكبا جملا يتهادى. (بن قينة، 2013م، صفحة 191). فقد شبها هذا الأسد المنهك الذي هو رمز للشجاعة والسيادة بكلب مجعد، وهو في رسن عربي يركب على جمل يتمايل؛ فهو يسخر بطريقة ما على كل عربي، فهم بدو بعيد ون عن الحضارة والتقدم، كلابهم كحالهم كلاب ليست جميلة مجعدة ضعيفة أنهكها التعب والجوع ...فجعل الكلب صورة تدل على حال صاحبه، وأنّ سيادتهم أنهكها الاحتلال وقضى عليها، ألم يعلم بأنّ الكلب رمز للوفاء لا يخون صاحبه، وإن أراد به الحط من قدر الجزائريين، كما أنّ الجمل رمز للتحمل والصبر، ورمز للقيادة والإعجاز، وإن كانت في نظر هؤلاء أنّها إهانة لنا، وهذا دليل عن الجهل الكبير لهؤاء عن حياة العرب .

والأدهى والأمر صورة في قمة الدناءة لامرأة تتخبط في سكرها، هي طبعا صورة لا نقول مصطنعة ولكن قام هذا المستشرق بتضخيمها...لأنّ هذا ديدن أغلب المستشرقين، فقلوبهم الملوثة بالكراهية للعرب والمسلمين، دفعهم لتشويه صورتهم أمام الناس، خاصة لهذا الشعب المسلوب أرضه، وإن يكن فهي صورة لا تعكس الحالة الاجتماعية للجزائريين فالشّاذ والقليل لا يقاس عليه، هدف بول أودال واضح كأي مستشرق هو رسم صورة نمطية مشوهة للجزائريين، وهذا ما جاء على لسان أحد الفرنسيين (السيد ديالير)

المذكريين في رحلته، والمتمثلة في :اتهام أهل القرآن بالضعف أمام المسكرات، وحبهم للخمر وهم سيتخلونّ عن القرآن إذا توفرت الخمرة مجانا. يبقى هذا رأيه هو، حجته في ذلك صورة ساقطة لامرأة سكرانة صادفها في الشّارع قد اتخذها:" ذريعة لكي يعرض عليه نظريته الخاصة بالمقارنة، فبالنسبة إليه أنّ المشكل هنا مسألة معقدة، لكن يمكن حلها بتوزيع الخمر مجانا على كل العرب، لن يتأخر واحدا عن شربها ...سيكون بهذا انتهاء القرآن ودوره. (بن قينة، 2013م، صفحة 268) . ونعرض في هذه العجالة إلى نموذج خطير من أبناء المستدمر الغاصب والمحتل لأراضي غيره شخصية (بيتانسي pitancier) السّاخطة على كل الناطقين بالضاد الّذي لا يرضى الخير لهذا الشعب وهذا ما يفهم من هذا القول، " بل هو مع إبادتهم كعرق، أو طردهم نحو أعماق الجنوب، بالطريقة الأمريكية مع الهنود الحمر. (بن قينة، 2013م، صفحة 240)، فهذا المحتل صور أبناء هذا الشعب بصورة الهنود الحمر الّذين لا يملكون موطنا، بل لهم موطن كما تشير الدراسات التاريخية وهو قارة أمريكا الشمالية، لكنهم تعرضوا لسلب أرضهم وللإبادة ظلما من طرف الأوربيين، ولعل أقوى العبارات السّاخرة : هذه العبارة الّتي تجعل قلوب الجزائريين الغيورين على بلدهم ينبضون بشدة غيظا وغضبا قوله :" تأملت بمرارة حذرة و أنا أرتدي ملابسي صخرة أثرية من زمن الغزو تعكس لنا الحوادث المزعجة للمعمر الجزائري [المستوطن]. (بن قينة، 2013م، صفحة 262). تعكس هذه العبارة موقف الشعب الفرنسي من أصحاب الأرض، حيث صار المحتل كالمالك الفعلي، أما الجزائريون فهم معمرون مزعجون يجب معاملتهم معاملة الدخيل بل أفظع.

ولعل أشنع صور مفتريات اتهام الجزائريين بعدم الوفاء، فبمجرد هزيمتهم في أحد المقاومات يخونون، ويلجئون لفرنسا كأنه ملاذهم الأخير. لكن من يقرأ التاريخ يدرك أنها صورة كاذبة ليست صحيحة، فالجزائري متمسك بمبادئه وكرامته لن يخون وطنه مهما الحقوا به من عذاب، وأما هؤلاء الخونة هم ضعاف النفوس، قد رضوا بالحياة الدنيا ونعيمها الزائل، فانضووا تحت لواء الظالم المغتصب فهلكوا. هذا القول يظهر هذه الفئة الخائنة:" سي محمد بوضياف بن هنّي ...هذه الأرومة الأصيلة النبيلة كانت ذات إخلاص راسخ للفرنسيين ...كان رجلا مخلصا في المصالح المالية لدى عبد القادر [الأمير]، فكان من أوائل من انضمّوا، للجيش الفرنسي بعد هزيمته. منذئذ هو وخلفه لم يخونونا. كافحوا معنا ضدّ المقراني عند إعلان ثورة 1871م. (بن قينة، 2013م، الصفحات 228- 229).

2 صورلزعماء الثورة:

تجرأ بول أودال في نص رحلته من رسم صورة ملفقة من خياله دون دليل عن زعماء المقاومة كـ "الشيخ المقراني" ووصف دفاعه عن وطنه بالتهور يقول:" باليستروا الذكرى الأليمة للتمرد المسلح الفظيع في 1871م بقيادة رجل الفروسية المقراني الّذي دفع من حياته، في مشروعه المتهور." (بن قينة، 2013م، صفحة 192)كما وصف مشروعه الدفاعي عن وطنه بالتمرد والّذي دفع حياته مقابله، وهنا يظهر الجانب الموضوعي للصورائية، وهو إظهار الجانب الإيجابي للرجال الذين سخروا أنفسهم للدفاع عن أوطانهم هو المجاهد

الشهيد الشيخ المقراني، الذي ألحق فرنسا خسائر جسيمة رغم قلة العتاد والسلاح، وهو رمز للشجاعة والقوة.

3 صورة النّساء:

قام الرحال بوصف ثياب القبائليات بالرثّة والممزقة قائلا :" تبدو كثير من الفتيات القبائليات في ملابس حمراء رثة ." (بن قينة، 2013م، صفحة 193) وفي موضع آخر أيضا يقوم بسخريته من لباس الجزائريات - نساء البرج والمسيلة - يقول :" هنّ في أثواب بيضاء قذرة و حمراء باهتة ...على الأجساد أسمال رثة ." (بن قينة، 2013م، الصفحات 206- 207) فهو لم يكتفي بوصفه للباسهم بأنه لباس بالي ورث، بل بلغا به الحد بوصفهن بالقذارة والإتساخ، وهذا محال في عرفنا لأننا مسلمون والإسلام يأمر بالنّظافة . كما لم تسلم هيئة تلك النسوة من التشويه يقول : "ينفتح الفم عن أسنان تساقط بعضها في وسط وجه رقروقي، من أعلى وجوههن ." (بن قينة، 2013م، صفحة 207) وفي موضع آخر يصف نساء الجزائريات بالشيخوخة المبكرة ؛ نساء مازلنا في مقتبل العمر أنهكت المجاعة والفقر والهموم الّتي فرضتها عليهم فرنسا منذ دخولها إلى الجزائر . يقول فيهنّ:" نساء واهنات أدركتهن الشيخوخة قبل عمرها الحقيقي . تغضّن العنق كجلد ديك رومي . " (بن قينة، 2013م، صفحة 208) سمح لنفسه أن يصف ويشبه نساءنا بالديك الرومي، قد تجعدن من التعب، و كثرة الهموم .

كما تجرأ على رسم صورة الفحش والبغاء على نطاق واسع، ورأى أنها تنتشر في شوارع المسيلة، لكن هذا ضرب من المحال وتزويرا للحقائق ؛ لأنّ الجزائر بلد محافظ تندر بل تنعدم مثل هذه الظواهر المنافية لتعاليم الدين في هذه الولاية العريقة، وما جاء به هو زور وبهتان أراد الاستنقاص من قيمة هذا الشعب المظلوم، وتشويه صورته أمام العالم، وهذا يكشف الفكر البغيض والمريض... الذي تمارسه في حق هذا الشعب المضطهد .يقول واصفا نساء المسيلة بالسّاقطات :" فتيات الشوارع السّاقطات في المسيلة ...العرب يقنعون بالدخول على واحدة مبذولة يمكن إتمام الصفقة معها بسهولة ." (بن قينة، 2013م، صفحة 221) ويواصل في موضع آخر، وبأسلوب أكثر فظاعة اتهام العفيفات من بنات المسيلة بالفجور والعهر قائلا :" لن تزول من ذهني أبدا ما حييت صورة هذه الزاوية العجيبة من فجور عربي، مع قصصها الّتي تحكي جذور بنات الهوى .." (بن قينة، 2013م، صفحة 223). قام هذا المستشرق بتضخيم حالات تكاد تنعدم في حق الشعب الجزائري، لكن الخطاب الاستشراقي في معظمه جاء لتشويه صورة العرب والمسلمين وهذا يتجلى بشكل واضح في كلام "حسين حنفي" الّذي يقول" إذا كان الاستشراق قد وقع في التحيز المقصود إلى درجة سوء النّية الإرادية والاهداف غير المعلنة، فإنّ الاستغراب يعبر عن قدرة الآنا باعتبارها شعورا محايدا على رؤية الآخر ودراسته وتحويله إلى موضوع ...ولكن الفرق هو أنّ الاستغراب يقوم على آنا محايد لا يبغي السيطرة...ولا يريد تشويه ثقافات الآخر وإن أراد معرفة تكوينها وبنيتها إن(أنا) الاستغراب أكثر نزاهة وموضوعية وحيادا من (أنا) الاستشراق." (حسين، 1991، صفحة 32)، وهذا أظنه دليل قوي على الإساءة التي يريد المستشرقون أن يثبتوها رغم أنّهم يعلمون بعدم صحتها.

يبدو أنّ هذا الرحال غير صادق ويفتقر للنزاهة إلى درجة أن وصلت به الوقاحة إلى أن يصف العفيفات الطاهرات من نسوة مدينة المسيلة بالتحرش، وهذا محال وخاصة في تلك الأزمنة الّتي عُرفت فيها

العائلة الجزائرية بالمحافظة والعفة يقول:" نتقاطع والنّساء اللّائي ينظرنا إلينا، فيمارسنا الهزل قائلات:(روميون)، يقلن ذلك بمقت متحرشات بنا في الممر." (بن قينة، 2013م، صفحة 226) ومما يؤكد أنّ كل ما صرّح به من أمور تخص نساء الجزائر عموما مجرد كذب وافتراء ونساء المسيلة خصوصا، وهذا المقطع – من رحلته- يكشف كذبه وإدعاءاته، يقول فيه:" تتواصل هذه الوتيرة من الحياة في سير الحيوانات والبدويات السّافرات." (بن قينة، 2013م، صفحة 238) وهل البدويات سافرات كما يدعي ؟، هذا ضرب من المحال، هي صور كاذبة خطها بقلمه تشويها لشرف بنات الجزائر العفيفات، وهذا حال أغلب المستشرقين الذي هذفهم الاساءة والتشويه.

كما لم تسلم من استهزاءاته النساء الكبيرات في السن إذ وصفهن بأقبح الصّفات قائلا:" غزتهن التجاعيد فالأنف معقوف والذقن متهدل والعيون غائرة في محاجرها والندوب تنتشر فيهن، ولا يعرف نسبهن الّذي تنحدر منهن." ولعل هذه أنذل صفة في وصف تلك العجائز وصفهن بجهلهنّ بنسبهنّ المنحدرات منه، وهذه صورة خطيرة تعكس الحقد الدفين في صدور هذا العدو.

4 صورة الرجال:

وأيضا: (بول أودال) هذا قد ادعى وافترى الكثير من الصور، فلم يترك شريحة من المجتمع إلا ورسم لها صورة قبيحة، قد مزج فيها بين الافتراء والّسخرية، ومن هذه الشريحة شريحة الرجال الّتي سمحت له نفسه أن يرسم لها صورة حسب مزاجه لعل أول هذه الصّور قوله :" إن لم أتحدّث عن المنظر البائس الّذي تبرز فيه مجموعات من رجال الشباب الّذين شوّها نساؤهم الأصول : شباب نحيلة أجسامهم، مصفرة ملامحهم كمدخّني الأفيون، عليهم علامات السّل الرئوي المبكر، وقد جلسوا على الأرض في وسط الفناء ...ينهمكون جميعا في تدخين السجائر ...يسرفون في تناول الكاردامون ومشروبات المحبة المثيرة للغريزة الّتي يتعاطونها في المقاهي المجاورة ." (بن قينة، 2013م، صفحة 223) ما يثير سخط كل عربي شريف اتهامه للجزائريين في أصولهم، إذ يزعم أن نساءنا الشريفات قد شوهته، أقول رادا على هذا الافتراء: كيف يعرف الأصول من ليس له أصل حتى، كما صور شبابنا بصورة شخص بائس يتعاط الأفيون، همهم غرائزهم الحيوانية، وتدخين السجائر. هي صورة شديدة الشناعة، لما تضمنته من تشويه، وافتراء في حق هذا الشعب الأبي المسالم. ومن الصّور الساخرة تشبيهه للرجال الملثمين بالمذنبين الهاربين لاقترافهم جناية أو ما شابه ذلك، ويظهر ذلك في قوله:" فترى جماعة من البدو يركبون جمالهم ...فيتلثمون بعمائم تجعل من المتعذر على المرء أن يرى وجوههم. هم يشبهون أولئك المذنبين في الجنوب الفرنسي الّذين يخفون نشاطهم السّري ." (بن قينة، 2013م، صفحة 317) أصبحت عادات وتقاليد الأمم سخرية في نظره ؛ لدرجة أنّه شبههم بالمذنبين.

5 صورة الفقراء

الحقيقة الّتي لا مناص منها هي كثرة الفقر والتسول في المناطق الجزائرية، وهي الحقيقة الوحيدة الّتي يسلم بها كل عاقل، لأنّ شعب يعاني ويلات الاحتلال، وقد منع من كل حقوقه ومن مزاولة نشاطاته في الحياة كالزراعة والرعي والتجارة ...وغيرها، فمن أين سيكون له الغنى أو التحضر. لكن ما عدا ذلك فجل الصّور ملفقة مضخمة لتحقيق مآربهم الاستعمارية، وأيضا طريقة التعامل العنيفة مع هذه الفئة الهشة من

المجتمع الجزائري. لعل من الصور القبيحة الّتي يصادفها قارئ هذه الرحلة في قوله أنّه:" كان فقراء المدينة سبقوا انطلاقنا، كأنما تواعدوا جميعهم كثيرا أو قليلا: عجزة بسيقان مرتطمة، وأذرع التصق جلدها بالعظم، وأسمال تنبعث منها رائحة حريق كضّمادات الجروح. ارتدى أحدهم بطانية ذات ثقوب ففيها يمشي وينام من دون شك، وسيدفن لاحقا ." (بن قينة، 2013م، صفحة 202) بهذه الصور المفتريات الّتي تحمل الكراهية والبغض لهذا الشعب إذ سولت له نفسه أن يرسمها لهذه الفئة الهشة من الجزائريين، بل أكثر من هذا فقد أملت له نفسه المريضة بالكراهية والحقد والتي هي صورة عن نوايا المستدمر الخبيثة، إلى أن يشبه هذه الشريحة البائسة بالنعامة قائلا:" يمتد السوق على مساحة فسيحة تكتظ بالمتسولين ذوي الأقدام الحافية، والسيقان النحيفة كقوائم النّعامة." (بن قينة، 2013م، صفحة 198)، وصفه يحمل هنا سخرية كبيرة، حيث شبه الرجل بالنعامة، ربما بروز أقدامهم ونحالتها بسبب الجوع، جعله يرسم هذه الصور اللاأخلاقية، فإن كانت هذه الصورة كما يزعم حقيقة فأنتم السّبب المباشر فيها، أليس لكم ضمائر، وأين الإنسانية الّتي تزعمون أنكم تحاربون لأجلها. والأمر الفظيع معاملتهم بفظاظة يقول :" أُبعد عني جميع المتسولين، فأدفعهم عني بفظاظة." (بن قينة، 2013م، صفحة 202). ومن الصّور المفتريات والسّاخرة قوله عن هؤلاء:" لا يفتأ الواحد منهم يكرر القول وهو يمد يده فيزعجونني بذلك، فيجب أن نطهر منهم الجزائر. لكنهم أكثر من الفرنسيين." (بن قينة، 2013م، صفحة 311) الصورة هنا تسفر عن حقيقة تضمنها القول وهي صور الفقر والحرمان، والجوع التي يعيشها الجزائريون حيث استغل وضعهم ليرسم لهم صورة ساخرة، ويعيب عليهم حالهم، الذي كانت فرنسا المحتلة سببا فيه.

6 صور التجار والعمال:

فهو لا يتوانى لحظة من التجريح والاستهزاء من المواطن الجزائري أيا كان، فها هو هذه المرة يوجه عدسته إلى تصوير فئة التجار والعمال، واصفا أحد التجار قائلا :" قصير وبدين، لحية سوداء، شاحب الوجه ...تحته تتحرك أقدام مشعرة كحال الشبقي." (بن قينة، 2013م، صفحة 265) والشبق في المعاجم العربية كثير الجماع، والياء للنّسبة أي وصفه بكثير الشهوة، إضافة إلى ما تقدمها من أوصاف ساخرة من هذا التاجر المرابي.

أما فئة العمال فقد قال عنهم بأنهم ذووا " أجساد شاردة النظرات هم مرمموا السّكة الحديدية بأذرعهم المفتولة، في ثياب قذرة ." (بن قينة، 2013م، صفحة 205) من العار أن نصف هذه الفئة التي تتعب في تأدية وظيفتها، وتخدم مصالح يستفيد منها الغاصب . الأولى وصفهم بالتفاني والإخلاص، والإجادة في تأدية مهامهم: لكن هيهات أن نجد مثل هذه الأخلاق في قلوب من يكنون لنا العداء والكراهية، ويتمنون الإبادة لنا. بهذه الصورة الّتي أراد أن يسخر من هؤلاء، والّتي لا تنطبق على هذا الوضع، فإن كانت نظراتهم شاردة فلأنهم يتعبون في عملهم، وإن كانت ثيابهم قذرة لأنّ العمل يتطلب ذلك ولأنّ حقوقهم مهضومة؛ فهم ليسوا في حفل أو مناسبة حتى تكون ثيابهم لبقة ولائقة. وهذا يكشف عن الفكر المريض بالحقد والسّخط على الجزائريين.

خاتمة:

الرحلة خطاب أدبي تاريخي له الكثير من الفوائد منها ما هو على الصعيد المعرفي، إذ يخدم التاريخ والإنسان، يحتاجه الباحثون على اختلاف تخصصاتهم، فلا مناص منه، نصوصه مزيج بين الواقع المعاش والخيال، وبين الحقيقة والزيف، بين الحق والكذب...لذا على الباحث أن يتحرى عن كل من يريد الأخذ عنهم، ولا يسلم بكل شيء، وأن يلتزم بمبدأ الشّك، حتى تكون نتائجه أكثر مصداقية

تدخل هذه الرحلة في خطاب الاستشراق الميداني، و تعتبر دراسة ميدانية لحالة الشّعب الجزائري تفتقر للموضوعية كما أشرنا في تعريف 'حسين حنفي'، وهذا حال أغلب الدراسات الاستشراقية ولا نقول كلها حتى نكون منصفين؛ لأنّ هناك دراسات التزم أصحابها بالموضوعية، استند بول أودال في هذه الرحلة لصور شاذة قليلة هنا وهناك، وأخرى ملفقة لتشويه صورة الجزائريين والعرب ككل من خلالها وهذا ما يسعون إليه.

رحلة بول أودال من الجزائر إلى بوسعادة دافعها السطو على ثروة الشعب الجزائري، كما صور صاحبها مجموعة من الصّور للجزائريين نساء ورجالا وحتى حيوانا بنبرة الساخر من أصحاب الأرض.

- تعكس لنا خطاب الرحلة الأوضاع المزرية للشعب الجزائري في هذه المناطق المذكورة آنفا، وعلى منوالها سائر مناطق البلاد وهذا ما لا يختلف فيه اثنان تحت راية هذا المستدمر الغاشم الّذي استولى على خيرات البلاد ظلما وقهرا.

- كما تعكس رحلات (بول أدال) المشاعر الدفينة في قلب كل فرنسي اتجاه أبناء هذا الشعب وهي الكره والحقد لدرجة الموت والإبادة لهذا الشعب.

- كما تبعث هذه الرحلة في قلب أبناء هذا الوطن، وكل محب له الوعي الكافي عن حقيقة فرنسا، وما أتت لأجله حتى نعيد مراجعة حساباتنا الخاطئة، وتصرفاتنا المتهورة التي دفعت الكثير من شبابنا نحو قوارب الموت.

_ الرحلة هذه نبراس وناقوس خطر، لذا وجب علينا أن نتفطن من المستقبل في ظل عدو غاشم يتحين الفرص حتى يكيد كيده متى سنحت له الفرصة، لذا الحذر وكل الحذر والاستعداد بإعداد العدة والقوة لصد الخطر الذي يتربص بنا.

قائمة المصادر والمراجع:

quotidient, j. (27.10. 1937). Paul udal. l'ouest Eclairer.

أفاية ,م .ن .(2009) .الإسلام في متخيل الغرب .(éd. 1)بيروت لبنان :الشركة العربية للأبحاث والنشر.

الحمداني يوسف نوفل . (2012). الصورولوجية في السرد الروائي عند مهدي عيسى الصقر. 2.

المهندس ,ك & .,مجدي ,و1984) .م .(معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب .بيروت :مكتبة لبنان ساحة رياض الصّلح.

بروتيل، ,ب .(2005) .ما هو الأدب المقارن) .ع .ا .خنون (.Trad ,عنابة :مخبر الأدب العام والمقارن.

حنفي حسين. (1991). مقدمة في علم الاستغراب. الاسكندرية: الدار الفنية للنشر والتوزيع.

خميس السعدي. (5, 7. 12, 2016م). المجتمع والعمران بمدينة المسيلة في القرن 19 من خلال رحلة بول أودال. الملتقى الوطني الخامس حول تاريخ وأعلام المسيلة (صفحة 4). الجزائر: دار الثقافة المسيلة.

عمر بن قينة. (2010). صورة الجزائر، أرضا وإنسانا لدى رحالة فرنسي 1899م من الجزائر إلى بوسعادة عبر برج بوعريريج. الجزائر: تالة الأبيار.

عمر بن قينة. (2013م). الأعمال المتكاملة(في أدب الرحلة). الجزائر: كولوريوم وزارة الثقافة.

فؤاد ,ق2002) .م .(أدب الرحلة في التراث العربي .(éd. 2)القاهرة :الدار العربية للكتاب.

محمد فاروق النبهان. (2012). الاستشراق تعريفه مدارسه وآثاره. ايسيسكو: منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

ناصر عبد الرزاق الموافي. (1995م). الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع (الإصدار 1). القاهرة: مكتبة الوفاء للطباعة والتوزيع.

هنري باجو دانييل. (1997). الأدب العام والمقارن. (غسان السيد، المترجمون) دمشق: اتحاد الكتاب.

يعقوب ,إ .ب & .,ميشال عاصي1987) .م .(المعجم المفصل في اللغة والأدب .(éd. 1)بيروت :دار العلم للملايين.